باب التقريظ

(كتاب البؤساء)

هو أشهر ما كتبه شاعر فرنسا الحكيم ، وأديبها العظيم ، « فيكتور هيجو » وهو هو الكتاب الذي رفع به ذكره ، وعلا في عالم المدنية قدره ، حتى صارت فرنسا تفاخر به العالمين ، وتحتفل لشيخوخته ولوفاته احتفالات لا يعهد مثلها للملوك والسلاطين ، وقد نقلت جميع الأمم الحية هذا الكتاب الى لغاتها وهمّ به بعض المشتغلين بالتعريب فما أطاقوه وكأنهم هابوا بلاغته في لغته لانه في الذروة العليا مما كتب بالفرنسية حتى أقدم عليها محمد حافظ افندي ابراهيم المشهور برسوخ المرقى في العربية وآدابها وطول الباع في التنقيح والتحرير ، والاجادة في المنظوم والمنثور ، فشرع فيه وسلخ في تعريب الجزء الاول منه اثني عشر شهراً — كما قال في المقدمة — وهو نحو ١٥٠ صفحة . وقد قدّم الكتاب الى الاستاذ الامام . وحكيم الاسلام . فشكر له الاستاذ ذلك بكتاب بليغ نستغني بنشره عن الكلام في مكانة التعريب من البلاغة : ومحله من الفائدة . ونبدأ بما كتبه حافظ افندي في أول النسخة المطبوعة وهو :

الى الاستاذ الامام

انك موئل البائس . ومرجع اليائس . وهذا الكتاب أيدك الله قد ألمّ بعيش البائسين . وحياة اليائسين — وضمه صاحبه تذكرة لولاة الامور وسماه كتاب البؤساء وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل)

وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب . وتصرفت فيه بعض التصرف . واختصرت بعض الاختصار . ورأيت أن أرفعه الى مقامك الاسنى . ورأيك الاعلى . لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث — أولها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك — وثانيها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف مهر الكلام ومقدار كد الافهام — وثالثها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ماوضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي الى ذاته بقبوله والله المسؤل أن يحفظه للدنيا والدين . وان يساعدني على اتمام تعريبه للقارئين . اهـ

فأجابه الأستاذ الإمام بهذا التقريظ وهو :

لو كان بي ان أشكرك لظن بالغت في تحسينه. أو أحمدك لرأي لك فينا ابدعت في تزيينه. لكان تقلمي مطمع ان يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك. ويجري في الشكر الى الغاية مما يطلبه فضلك. لكنك لم تقف بعرفك عندنا. بل عممت به من حولنا، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا

زففت الى أهل اللغة العربية. عذراء من بنات الحكمة الغربية. سحرت قومها، وملكت فيهم يومها . ولا تزال تذبه منهم خامداً. وتهز فيهم جامداً. بل لا تنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة. وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيه الاسوة. حكمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى الى التقاطها رجلا منا فجردها من ثوبها الغريب. وكساها حلة من نسج الاديب. وجلاها للناظر. وحلاها للطالب. بعد ما أصلح من خلقها. وزان من معارفها. حتى ظهرت محببة الى القلوب. شيقة الى مؤانسة البصائر. تهش للفهم وتبش للعلف الذوق. وتسابق الفكر الى مواطن العلم. فلا يكاد يلحظها الوهم الا وهي من النفس في مكان الاهلام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك فوقف العجز بأعلبهم عند مبتدأ الطريق ووصل منهم فريق الى ما يحب من مقصده. ولكنه لم يعن بأن يعيد الى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويرد اليها ما سلبه المقتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه. أما أنت فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمريد بعده. ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده. ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت الى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الارواح فظهرت لك اليوم في صورة أبدع. ومعنى أنفع. ولعلك قد سننت بطريقتك في التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك. ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه. فتكون قد أحسنت الى الابناء. كما أحسنت في الصنع مع الآباء. وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من العجمة سوى ما هو في الاسماء اسماء الاماكن والاشخاص لا أسماء المعاني والاجناس.. ومثلي من يعرف قدر الاحسان اذا عم . ويعلي مكان المعروف اذا شمل. ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي:

ولو اني حبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا هطلت عليّ ولا بارضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك وما أحقك بأن ترضى من الوفاء بالمفاء

تقول ان الذي وصل سببك سر صاحب الكتاب ووقف بك على دقائق من معانيه اشتراكك معه في البؤس. ونزولك منزلته من سوء الحال. وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة. فان كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة. ثم كان سبباً في امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة. سألت الله ان يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ وان يجعلك في بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم والسلام

(محمد عبده)

وقد طبع الكتاب بمطبعة التمدن على نفقة صاحب السعادة احمد حشمت باشا مدير الدقهلية وهي أريحية لا يعرفها أهل العربية في أنفسهم الا ما كان أيام سلفهم وثمن النسخة من الكتاب عشرة قروش أميريه وأجرة البريد قرش واحد وهو يطلب من ادارة المؤيد ومن مطبعة التمدن بمصر فنحث أهل العلم والادب على اقتنائه ونعدهم بنشر نموذج منه

(إعانة سكة الحديد الحجازية)

تذكر أننا ذاكرنا صاحب الدولة مختار باشا الغازي في مسألة إعانة هذه السكة عند مابدأوا بجمعها فقال كان من رأيي ان يفرض على كل مسلم مبلغ قليل في كل سنة من سني العمل فيكون ذلك مع الموارد الأخرى المخصصة لنفقات السكة ربما ثابتاً مقدراً ويمكن معه تقدير الاعمال ولا يثقل على أحد من الناس. وكنت استحسنت هذا الرأي وقد ظهر لنا الآن أن مولانا السلطان لم يكن غافلا عنه ولكنه أطلق عنان الإعانة أولا ليظهر كرم المسلمين في أول نشأة العمل ثم رجع الى هذا الآن فأصدر أمره بتعيين مبلغ أقله خمسة قروش على كل مسلم — وأي مسلم يعسر عليه دفع خمسة قروش في السنة ؟ ويسرنا ان مسلمي مصر قد اندفعوا الى تأليف اللجان وجمع الإعانات ونرجو ان يسبقوا غيرهم في هذا المضمار . وان كره لهم ذلك « أصحاب السعادة » النظار. فإن كراهتهم لا أثر لها في جانب منفعة ولا دفع مضرة « ورضوان من الله أكبر » وليعلموا أنهم أكثر مسلمي الارض رخاء وهناء وسعة الا ان يكون في الصين من يفضلهم في ذلك من حيث لا ندري . ثم أنهم قد ذاقوا مرارة صدهم عن بيت الله وإقامة العقبات في وجوه مريدي الحج اليه ولا يدرون ماهو مخبأ لهم في المستقبل فليبادروا الى تسهيل سبيل بيت الله وأجرهم على الله وهو لا يضع أجر المحسنين